

سعيد الصديق

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة

1942

الهاشمي الفيلاي

للفقيد نواح شتى في حياته الحية جدية بالدرس والاهتمام وجديرة بأن نستخرج منها مثلا صلحة حية لشبابنا الذي نريد له أن يحيا حياة حركة لا سكون، حياة تطور لا جمود، حياة جد لا هزل، حياة إنتاج لا عقم، وإن من بين هذه النواحي ناحية ممتازة لها أثر عظيم في حياة سعيد وفي مشاريعه وأعماله وفي آماله وأمانيه، بل لها من الأثر ما لا نكون مبالغين إذا قلنا إنها سر نجاحه والعامل الأساسي في تحقيق آماله ومراميه، تلك هي جانب الصداقة في حياة سعيد.

وإذا تحدثت اليوم عن هذه الناحية فليست متحدثا إلا عن جانب صغير وظاهرة خاصة لصداقة خمسة عشر عاما مع الفقيد، صداقة كلها صداقة صدق، وحب وإخلاص، وعطف وإجلال، ووداد وتقدير، وإعجاب في صراحة خمسة عشر عاما (عنوان الأخوة الثابتة والصداقة الموطدة الدعائم مدى الدهر)¹

خمس عشر عاما ما اجتمعت فيها مع سعيد إلا وكان له عمل قد تم إنجاز، أو مشروع

¹ بهذا وقع الفقيد على صورة أهداها إلى في 24 أبريل سنة 1930

يضع له الخطط والبرامج ، وما افترقنا إلا على سلسلة اقتراحات وأفكار شتى تدرس وتبحث ، ولا أذكر له رسالة من المشرق أو المغرب تخلو من أحد المواضيع السابقة؛ عرفت سعيدا وهو رجل الآمال والأمانى والأحلام، ورافقت سعيدا وهو واضع الخطط ومصمم البرامج لتحقيقها؛ وودعت سعيدا وهو يحقق ما كان خيالا، ويصور ما كان حلما، ويرى للكل في عالم الواقع والمحسوس ما كان أمنية، وفي كل المراحل عرفت سعيدا الصديق وكيف يفهم الصداقة. لم يكن سعيد رجل العاطفة المجردة يصادقك ويغمرك بعواطفه الفيضة ويتكلف ما تفرضه العاطفة وأدبها من كلمات عذبة ومجاملات رقيقة وأساليب حلوة وبعد عن كل ما يثير العواطف أو يجرحها كما يقال، حتى يحمله ذلك على تسليم ما لا يقبله عقله أو تصديق ما يرمي بمخالفته للواقع أو يؤدي به ذلك إلى أن يقف له عمل أو تتعطل له حركة أو تنقض له فكرة يؤمن بصوابها؛ ولم يكن سعيد رجلا جافا جامدا لا يؤمن إلا بالعقل المجرد ولا يرى للعاطفة أثرا في نفسه أو في الناس، فيسير معهم على ضوء المنطق المجرد والحقائق الجافة المرة. ولكن كان سعيد رجل العاطفة ورجل العقل، له عقل ممتاز وخيال خصب وعاطفة في أضييق حدودها. يصادق ومهما تعددت مظاهر الصداقة وتنوعت الروابط فهو لا يقدر إلا نوعا واحدا منها ولا يجعل من مختلف مظاهر الصداقة إلا مظهرا واحدا يهتم به ويحرس على بقاءه هو صداقة العمل والنفع المطلق له أو لغيره، فإذا صادقت صداقة العمل يسير معك إلى أبعد حد في صراحة وإخلاص، ويغمرك في هذه المرحلة بما شئت من لطف في القول ومجاملة في المعاملة ومحافضة إلى أبعد مدى على إحساساتك وميولك، ويضيء أمامك مجاهل المستقبل المظلم بما يبده خياله الخصب من مشاريع وأعمال إلى أن يصوره لك مشرقا زاهرا جميلا فيأخذ في الوقت الواحد قلبك وعقلك، ويجعلك في الوقت تحبه وتقدره وتنقاد له ولا تشعر إلا وأنت تتمثل بقول الشاعر:

وإذا سخر إليه أناسا لسعيد فإنهم سعداء

أما حظك منه وإلى أي مدى يبلغ نفوذك عليه وإلى أي حد استطعت أن تؤثر على عقله أو عاطفته فهذا ما تظل جاهلا له ولا يعرف منه ذلك إلا القليل لأن سعيدا ليس من أولئك الذين يتأثرون لكل مؤثر وليس من أولئك الذين إذا تأثروا لأمر ما كان ما يظهر عليهم مقياسا حقيقيا لمدى تأثيرهم، ومهما حاولت معرفة هذه الظاهرة وأجهدت نفسك في اكتناها فإنك لا تخرج بأكثر من أنه يحبك ويخلص لك الود ويعظم شعورك بهذه الحقيقة كلما كنت منقادا له سائرا معه إلى الهدف الذي ينشده والغاية التي يعمل لها، أما إذا وقف بك السير واختلفت وجهة نظريكما فإنك لا ترى في هذه المرحلة إلا سعيدا رجل العقل المجرد والقلب القوي الذي يسير مجدا ولا يلوي على أحد. نعم لا يئس منك ولا ينسى صداقتك بل يظل دائما محتفظا بودادك وفيا لعهدك مجددا لذكراك.

ولقد استطاع بمواهبه الممتازة أن يجعل من معارفه وأصدقائه ممن ليسوا بعاملين رجال عمل واثر في الحياة مهما تعددت مناهجهم واختلفت وجهاتهم وتعددت وسائلهم وأن يوجه إلى وجهة خاصة في الحياة ممن لم تكن لهم وجهة فيها ويعلم النظام في العمل والدقة في الحكم والإتقان في البرامج ممن كان منهم يسير على غير هدى وأن يخلق مثلا وأماني واقفا واسعا لمن كان لا يشغله لا يومه ولا غده، كما استطاع أن يستفيد من كل أصدقائه العاملين في مختلف ميادين العمل فيهندي بأفكارهم وتجاريهم في كثير من مراحلهم وينتفع إلى حد كبير من أعمالهم ومساعداتهم له وتشجيعاتهم إياه.

رحمك الله يا سعيد، فقد استطعت بمهارتك وسعة فكريك ودمائة خلقك أن تكون من نفسك محورا تدور عليه رحي تلك المشاريع والأعمال ... وأن تجعل منها نقطة وصل تربط بين أفكار متباينة ونفوس غير متعارفة وعقول ليست بمتجانسة واستعدادات متفاوتة حتى نظمت حولك أسرة وأوجدت لعملك جوا وهيأت لشاريعك مؤازرين وأنصارا.

رحمك الله يا سعيد فلنا في فقدك مصاب عظيم وفي أثارك عزاء كبير.